بين ظلال الغربة
وأنوار الذات
بديع الزمان القشاعلة

بين ظلال الغربة وأنوار الذات

د. بديع الزمان القشاعلة

نشر وتوزيع مركز السيكولوجي
للنشر والتوزيع الالكتروني
النقب – 2024

Alk.badeea@gmail.com

00972509316282

اهداء:

أهدي كتابي هذا الى عائلتي

والى أصدقائي الذين

درسوا معي في سانت بطرس بورغ

لا أنسى منهم أحد خاصة المجموعة التي

سكنت معي في مسكن الطلبة (بليخانفا تري)

وإلى كل مغترب

1

.... أذكر تلك اللحظات كما لو كانت الآن أمامي، حية، نابضة، كأنني أعيشها من جديد. أتذكر حين وطأت قدماي شوارع سانت بطرسبرغ للمرة الأولى، كغريب وصل إلى عالم مختلف، أرهبه حجمه وجماله. كان الهواء باردًا، يحمل في طياته عبق التاريخ، ورائحة أمطار قديمة تسللت بين الأحياء. كل شيء بدا لي وكأنه مشهد من فلم كلاسيكي، حيث الجدران تُصغي، والأرصفة تهمس، والسماء تراقب بصمت.

في أول صباح لي، خرجت من بوابة مسكن الطلبة, "بليخانافا تري"، مترددًا، كطائر صغير خرج من عشه لأول مرة، يبحث عن أفق جديد. الباب كان غريباً وهائلًا، بابًا لم أرَ مثله من قبل. خشبه الداكن، ونقوشه القديمة، كل شيء فيه كان ينطق بأصالة نادرة. مررت منه بحذر، عبرت الفراغ الضيق بين ظلفتيه، وشعرتُ حينها كأنني أعبر من عالم إلى آخر. كنت أقف هناك، في تلك المساحة بين البابين،

أسترق النظر إلى ما ينتظرني في الخارج، بينما قلبي ينبض بشدة، يمزج بين الخوف والإثارة.

ما إن وطأت قدمي الرصيف، حتى شعرت بقشعريرة غريبة. الشوارع كانت واسعة بشكل لم أعهده من قبل، كأنها أنهار حجرية تجري بلا ماء. الوجوه من حولي كانت غريبة. لم يفطن أحد لوجودي، لا نظرات تساؤل، لا همسات، لا فضول، وكأنني شبح مرّ بينهم دون أن يترك أثرًا.

أتذكر كيف أن هذا الشعور الأول باللامبالاة كان مزعجًا، لكنه سرعان ما تحول إلى شيء آخر... شيء أشبه بالحرية.

في بلادي، كانت العيون تلاحقني، تراقبني، كل حركة كانت تُقرأ، كل نظرة تُفسر، وكأنني أمام محكمة غير مرئية طوال الوقت. كنت أعي تمامًا كل خطوة أخطوها، كل كلمة أنطق بها. أما هنا، في سانت بطرس بورغ، كان الأمر مختلفًا. شعرت أنني أخيرًا قادر على أن أكون كما أشاء، أن أتحرر من الأعين التي تحاكم وتُدقق. لوهلة، شعرت برغبة في أن أركض، أن أقفز، أن أصرخ في الهواء، فقط لأتأكد أنني مرئي، أنني موجود، لكنني لم أفعل. بدلًا من ذلك، اكتفيتُ بالمشي في صمت، كمن يحاول استكشاف أجنحة الحرية للمرة الأولى.

رغم تلك الحرية التي شعرت بها، لم أستطع التخلي عن عادة المراقبة. نشأت في بيئة تعلّمت فيها أن أراقب من حولي، أن أرصد تفاصيل الوجوه والحركات، أن أحلل الصمت كما أفسر الكلام. كنت أنظر إلى المارة من حولي، أتابع حركاتهم، أحاول قراءة أفكارهم. كانوا يسيرون في خطوط منتظمة، كأنهم مرتبطون بخيط غير مرئي، لا ينظرون إلى الجانبين، لا أحد يُلقي تحية، ولا أحد يلتفت. كل منهم غارق في عالمه الخاص، في دائرة مغلقة. رأيت فيهم شيئًا من الغرابة، شيئًا جعلني أشعر أنهم، رغم قربهم، بعيدون، كأنما تجمعنا المسافة وتفصلنا العوالم.

2

... يوم دخلت غرفتي أول مرة, بمسكن الطلبة في (بليخانفا تري)، شعرت كأنني أنتقل من عالم حديث إلى آخر قديم مغبرّ، حيث تمتزج كلّ شقوق الجدران وخطوط الأرضيات بصمت الماضي.

رائحة الخشب المعتق كانت تُهيمن على المكان، تمتزج مع رائحة رطوبةٍ تسرّبت عبر السنوات، مُستوطنةً في أعماق الألواح الخشبية، كأنّها تبثّ في المكان أنين ذكريات منسيّة. كلّ ما في هذه الغرفة كان يتنفس ببطء، يهمس لي برفق, "لقد عبرنا من هنا الكثير... لقد شهدتُ جدراني حكايا صامتة... ضحكات اختنقت خلف هذه النوافذ... ودّعت أحلاماً، واستقبلت أخرى".

الضوء الخافت الذي تسلل بخجل عبر الطبقة الأولى من النوافذ الزجاجية الطويلة كان يتراقص على سطح الأرضية الخشبية، يرسم أشكالاً غير متناسقة على الأرض كأنّه يلهو مع أشباح الساكنين السابقين، أو كأنّه يذكرني بأنّني لستُ هنا وحدي. تلك النوافذ بطبقتها المزدوجة كانت تشبه جفنين من زجاج يراقبانني بهدوءٍ،

بصبر من يعرف أن الزمن هنا يمرّ ببطء، وكأنّها تنتظرني لأفشي لها أسراري. شعرتُ للحظة بأنّها تراقب حركاتي وتراقب خطواتي. في تلك اللحظة، أدركت أنّني لم أكن أمام مجرد زجاجٍ قديم، بل أمام أرواح الغرفة، تلك الأرواح التي تسكن كلّ تفصيلة صغيرة، تختبئ خلف كلّ لوحةٍ متصدّعة وكلّ ثقب في الأرضية.

الأبواب الخشبية كانت شاهقة، كأنّها تعانق السقف المرتفع، ثقيلة كأنّها تحمل على عاتقها عبء الذكريات. كلّ مقبض كان يحمل أثر الأيدي التي لامسته، كلّ خدش على سطحها يحكي حكاية من عبروا من هنا في وقت ما. وبين هذه الأبواب والنوافذ، كانت الجدران ترتدي لوناً رمادياً باهتاً، كأنّها لوحة انتُزعت منها الألوان. شعرت وكأنّ الجدران نفسها تتنفس، تأخذ شهيقاً طويلاً حين أقترب منها، وكأنّها تستعد لتبوح لي بحكاياها، ثم تتراجع بخفوت لتتركني في حيرة تامة.

وعلى الأرض، كانت الألواح الخشبية تصدر صوت صرير مكتوم مع كلّ خطوة أخطوها، كأنّها تتنهد تحت قدميّ، ترسلُ لي إشارات خفيّة، تذكّرني بأنّني لستُ أول من عبر هذه الأرضيات. تلك الرائحة العالقة، خليطٌ من عطر الخشب العتيق ونداء الرطوبة، ظلّت تحاصرني ، كأنّها تربطني إلى هذا المكان برباط خفيّ. ظلّت الرائحة

تملأ أنفي، كأنّها شريان ينبض بحياةٍ متجددة، يحملني معها عبر نفق طويل، يعبر بي إلى ماضٍ لم أعهده ولكنه، وبطريقة ما، كان مألوفاً.
كانت الأرضية الخشبية تحت قدميّ أشبه بكتاب مكتوب بلغة لم أتعلمها بعد، مزيّن برموز ونقوش غامضة تروي قصصاً منسية...

3

... أتذكر تلك اللحظة عندما أدركت أنني وحيد، وحيد بمعنى جديد، معنى لم أعهده من قبل. كان شعورًا ممزوجًا بالرهبة والراحة في آن واحد. كنت حرًا، لكن حريتي كانت نوعًا من العزلة، عزلة تعطيك المساحة لتكون من تريد، ولكنها تتركك أيضًا تواجه نفسك بلا ملاذ. كنت أسير بين الناس في المدينة، أدرس تفاصيلها، أرسم في مخيلتي خرائط لشوارعها وأزقتها، أحفظ ملامح المباني القديمة، وأتساءل, كم من البشر مرّوا من هنا؟ كم من القصص تُروى بين الجدران؟ كم من الآمال والأحلام ذابت مع أمطار الخريف، وتسربت في الشقوق الضيقة بين الحجارة؟

كانت المدينة تحمل في طياتها شيئًا من الغموض، شيئًا يجذبني رغم برودتها. كنت أمشي في الشوارع كما لو كنت أسير في ذاكرة لا تخصني، أتلمس روحها، أحاول فك شيفرتها.

كانت السماء رمادية في معظم الأوقات، لكنني أحببت تلك الغيوم الثقيلة، أحببت الطريقة التي تلتف بها فوق الأبنية، تُلقي بظلالها على الوجوه العابرة، وكأنها تضيف بُعدًا جديدًا للزمن. كنت أشعر أنني أسير في مشهد سينمائي طويل، كل لقطة فيه محمّلة بمعنى مخفي، ينتظر من يكتشفه.

كل يوم كنت أكتشف زاوية جديدة، شارعًا لم أره من قبل، مقهى مختبئًا بين الأزقة، وجوهًا تحمل قصصًا أعمق مما أستطيع فهمه. كانت سانت بطرس بورغ بالنسبة لي أشبه بكتاب ضخم، كل صفحة فيه مكتوبة بلغة مختلفة، كل فصل يحكي حكاية لا تشبه الأخرى. المدينة نفسها كانت غريبة، بأبنيتها الضخمة، بغموض شوارعها، بصمتها الذي يكسو كل شيء، غريبة، مثلي أنا.

أظن أنني أدركت حينها أنني لست بحاجة لأن أكون جزءًا منها. يكفي أن أكون شاهداً، أن أحتفظ بذكرياتي كما هي، حيّة، تنبض كلما تذكرتها. سانت بطرس بورغ ستظل في قلبي، كصورة خالدة، مدينة لا تفتح أبوابها بسهولة، لكنها إن فعلت، ستتركك محملًا بأكثر مما تستطيع حمله.

4

... في أيامي الأولى في سانت بطرسبرغ، كنت كمن يتيه في متاهة الشوارع الغريبة. كل شيء حولي بدا مختلفًا, وجوه الناس، ملامح المباني، وحتى الهواء بدا وكأنه يحمل طعمًا جديدًا. في أحد الأيام، عندما بدأ الجوع يقرع أبواب معدتي قرعًا، قررت أن أخرج إلى الشارع الأمامي بحثًا عن شيء آكله، أو بالأحرى، أي شيء يسكت معدتي التي لم تكف عن التذمر منذ الصباح.

خرجت من مسكن الطلبة، ولفتني الشارع بمبانيه العتيقة وألوانه الدافئة التي تتناغم مع طقس المدينة الخريفي. على جانبي الطريق، كانت هنالك واجهات محلات صغيرة تتراص، معظمها متواضع. لم أكن قد اعتدت على قراءة اللوحات بالروسية بعد، كل ما أستطيع تمييزه هو الأشكال العامة والصور. وخلال بحثي، لمحت كشكًا صغيرًا تتصدره صورة لسندويش نقانق محاط برذاذ من الكاتشب والخردل، بجواره تشيبس يزين المكان.

لم أتردد, اقتربت منه ووقفت أمام البائع، رجل طويل القامة، يضع على رأسه قبعة سميكة كأنها تزن نصف وزنه، ونظرة صارمة لا تبشر برغبة في الدردشة. لم أكن أفقه كلمة واحدة من الروسية، لذا قررت أن أشير للصورة التي تتصدر واجهة الكشك. البائع فهم بسرعة، وهز رأسه ثم باشر في تحضير السندويش بسرعة ودقة.

ثم أضاف عليه كومة سخية من السلطات والخضروات المفرومة، ولفّه بعناية ليقدمه لي بابتسامة باردة. دفعت له روبلًا أو ربما أكثر، فلم أكن قد أتقنت بعد قيمة العملة, وأخذت السندويش لأتذوق أول لقمة, كان الطعم لذيذًا بشكل لا يُصدق, مزيج من النكهات الغنية التي كانت جديدة تمامًا بالنسبة لي.

أسبوع كامل مضى وأنا أتناول هذا السندويش اليومي من الكشك ذاته، كان يشبه طقوسًا صباحية أستعد بها لمغامراتي اليومية في المدينة. وكم كنت سعيدًا بتلك السندويشات التي كانت تمثل وجبتي الخفيفة، السهلة، والمريحة.

وذات مساء، زارني بعض الطلاب العرب الذين علموا بوصولي حديثًا، جاؤوا مبتسمين حاملين معهم أكياسًا من سندويشات الشاورما وبعض السلطات. جلسنا نتبادل الأحاديث ونتشارك

الوجبة، ووسط ضحكاتهم وأحاديثهم، سألني أحدهم بفضول: "كيف دبّرت أمورك في الأكل؟ لا بد أن اللغة صعبة؟"

ابتسمت بفخر وقلت: "لا تقلق، لقد دبرت أمري بمهارة! وجدت كشكًا يبيع النقانق، وأتناول ساندويشًا منه كل يوم، طعمه لا يُعلى عليه"!

وفجأة، عمّ الصمت، ونظروا إليّ بدهشة، ثم انفجروا بالضحك، مما أثار استغرابي. أحدهم مال عليّ وهمس وكأنه يخشى أن يسمعه أحد: "هل تعرف ما نوع لحم النقانق الذي تأكله؟" أجبت مطمئنًا نفسي: "لحم بقري، بالطبع!" فزادهم ذلك ضحكًا، وقال أحدهم بين شهقات ضحكته: "يا مسكين! هذه نقانق خنزير، يا عزيزي"!

تجمدت للحظة، شعرت وكأن الزمن توقف, خنزير؟! أخذت نفسًا عميقًا، وبدأت أسترجع في ذهني كل لقمة تناولتها خلال الأسبوع الماضي، تلك الوجبات التي كنت أعتبرها اكتشافي اليومي. "يا إلهي، لقد أكلت خنزيرًا!" ترددت في عقلي كلماتي وكأنها صدى بعيد. وكأنني أرى نفسي على مرآة الحائط, وجه يحمل الصدمة، عينين متسعتين، ويدين مستسلمتين. شعرت بثقل يهبط على قلبي، وصورة الشطائر تمر أمامي ببطء وكأنها مشاهد من مسلسل كرتوني.

بدأ زملائي يسخرون من الموقف، وكانت ضحكاتهم تتعالى, أحدهم قال مازحًا: "يبدو أنك أكلت نصف خنزيراً", ضحكت معهم في النهاية، بعد أن بدأت أستوعب ما حدث، لكنني قررت أن أستغفر كثيراً, وكانت الأفكار أني اكلت نصف خنزير تجول في راسي طوال الليل.

5

... كنت أتجول في شارع "النيفسكي بروسبيكت" كما لو أنني أقتحم عالماً من الأحلام المتجسدة. كل زاوية، كل مبنى، كان ينضح بفن فريد، بجمال لا يوصف. المباني هناك كانت أشبه بالقصائد، كل منها له قافية خاصة، ينطق بلغة الحجر والرخام. كان كل واجهة تتحدث بطريقتها، تروي قصصًا من زمن مختلف، كأنها تحكي عن حروب قديمة، أمجاد منسية، أو حتى حبٍ صامت بين الأحجار والنوافذ العالية.

أتذكر وقوفي هناك، أتأمل الجدران المشيدة بألوان خريفية دافئة, درجات من الأحمر، والأصفر، والبيج، تتداخل بانسجام أشبه بموسيقى كلاسيكية هادئة.

بقيت أحدق في تفاصيلها، غارقًا في دهشتي، كمن يكتشف وجهًا جديدًا في كل مرة يحدق فيه. وكما اعتدت أن أضيع في تأملاتي، فجأة، قطعتني من شرودي لغة لم أفهمها حينها.

- " تي شتو؟ أتكروي غلازا!"

كانت تلك الكلمات الأولى التي سمعتها بالروسية من رجل بدا كأنه تجسيد للغضب الروسي. لم أفهم معنى ما قاله، لكن نبرة صوته وطريقة وقوفه أخبرتني أكثر مما كان ينبغي لي أن أعرفه. كان يقف أمامي، طويل القامة، عريض الكتفين، وجهه شديد الاحمرار، كمن قُطع تنفسه لبرهة. نظراته كانت قاسية، عيناه الزرقاوان الضيقتان كانتا تخترقانني. ضغط على كفيه، وكأن قبضته تنتظر اللحظة المناسبة للانفجار. عرفت حينها أنني قد تسببت في إزعاجه، ربما بسبب تصادمي به دون أن أنتبه.

فقط نظرت إليه بعينين مشدوهتين، أحاول تفسير ما يقوله من حركات جسده. أدركت لاحقًا، عندما تعلمت بعض الكلمات الروسية، أن "أتكروي غلازا" تعني "افتح عينيك!"..

مرّت الأيام، وتعلمت كلمات جديدة، كل منها كان بمثابة مفتاح يفتح لي بابًا جديدًا في هذه المدينة العتيقة. أتذكر محاولتي الأولى لشراء

الخبز. كنت في حاجة إلى بعض الطعام، لكني لم أكن أعرف شيئًا من اللغة الروسية. سألني أحد زملائي في المسكن : "هل تعرف كيف تقول خبز بالروسية؟". هززت رأسي بالنفي، فقال لي: "قل فقط: دفا باتونا". ترددت، كررتها ببطء: "دفا... باتونا؟" ضحك وأجابني: "نعم، تعني رغيفين من الخبز". شعرت بالارتباك، هل الأمر بهذه البساطة؟ هل ستفهمني البائعة حقًا؟

انطلقت إلى البقالة المجاورة، والقلق يملأني. كنت أكرر الجملة بهمسٍ، خشية أن أخطئ: "دفا باتونا، دفا باتونا". حين وصلت، كانت هناك امرأة مسنّة تتحدث بحماسة، وتشرح شيئًا ما للنسوة حولها. كانت عيونها تلمع، ويديها تتحركان في الهواء، وكأنها تنسج قصة طويلة بخيوط من لغة لا أفهمها. ابتسمتُ بحذر، لكنها، لسبب ما، قررت أنني شريكها في هذه المحادثة، بدأت تتحدث إلي مباشرة، تحرك حاجبيها، تميل رأسها، وتشير بيدها. لم أستطع إلا أن أبتسم بارتباك، أحرك رأسي في حركة موافقة، وأتمنى أن ينتهي هذا الموقف سريعًا.

وأخيرًا، جاء دوري. نظرت إليّ البائعة بوجه جامد، وتحدثت بسرعة بلغة لم أفهم منها شيئًا. لحظة من الصمت، ثم خرجت مني الكلمات

التي حفظتها بشق الأنفس: "دفا باتونا". تراجعت البائعة ببطء، ثم اختفت خلف الرفوف، لتعود بعد لحظات تحمل رغيفين من الخبز. شعرت بنشوة النصر. ها أنا قد نجحت! دفعت النقود، والتقطت الخبز كأنني أحمل كنزًا. كانت تجربة بسيطة، لكنني شعرت وقتها أنني انتصرت على عقبة أولى في طريق طويل.

6

.... في ليلة من ليالي سانت بطرسبرغ الرمادية، كانت الساعة تشير إلى الواحدة والنصف بعد منتصف الليل. كان الصمت يلف المدينة كما لو أنها دخلت في سبات عميق، والهدوء يحيط بي من كل جانب، لا يقطعه سوى صوت خافت قادم من بعيد، صوت إطارات السيارات وهي تسير مسرعة بين الحين والآخر في الشارع القريب من مسكني في "بليخانافا تري". كنت مستلقيًا على سريري الضيق، أحاول جاهدًا أن أنام، لكن عبثًا... كان النوم يتملص مني في كل مرة أقترب منه، وكأن عقلي مصمم على إبقائي مستيقظًا في تلك الساعات المتأخرة من الليل.

أغمضت عينيّ، حاولت أن أنام، لكن كل محاولة كانت تزيدني يقظة. الأرق كان يزداد شراسة كلما حاولت أن أستسلم لهدوء النوم. كانت غرفتي باردة، والجدران العالية المحيطة بي بلا زينة بدت كئيبة. راح

عقلي يدور في حلقة مفرغة، أتقلب ذات اليمين وذات الشمال، أبحث عن وضعية تجعلني أرتاح، لكن دون جدوى.

قررت أخيرًا أن أستسلم لليقظة. جلست في فراشي، نظرت حولي في الغرفة الصغيرة ذات الإضاءة الخافتة. كان كل شيء فيها بسيطًا، الطاولة الخشبية القديمة بجوار السرير، الكرسي المهترئ بجانبها، والنافذة الصغيرة التي تُطلّ على الشارع المظلم في الخارج. مددت يدي إلى الورقة والقلم وبدأت أكتب رسالة، رسالة إلى والديّ... كان هذا أكثر شيء شعرت برغبتي في القيام به حينها. كتبت أول سطر ببطء، ووجدت أن الحروف تتدفق كما لو كانت تخرج من أعماقي، تزيل بعضًا من ثقل الغربة عن قلبي.

"أبي وأمي العزيزين...

أتمنى أن تكونا بخير. أما بالنسبة لي، فالحمد لله، الأمور تسير على ما يرام. ما زلت أعتاد على الجو الرطب والبارد، والذي لا يشبه أبدًا مناخ بلدتنا. بالأمس، خرجت لأشتري جاكيت جديدًا، شيء ثقيل لأحتمي به من برد الليل القارس."

توقفت لبرهة، شعرت بالحنين يملأني. وأكملت.. هذه المدينة، رغم جمالها، لا تشبه المكان الذي أتيت منه. كل شيء هنا بارد ، حتى

الناس يسيرون كأنهم لا يرون بعضهم البعض. ومحاولة مني لتقريب المسافة استطردت:

".. سأخبركما بشيء مضحك حدث معي أمس. غرفتي، كما تعرفان، صغيرة جدًا، ليس فيها حمام للاستحمام، فقط مرحاض وحوض صغير. عندما وصلت، فكرت أنه ربما هناك حمام مشترك في الطابق السفلي. نزلت بحماس أسأل المسؤولة عن المكان. نظرت إليّ بابتسامة عريضة، ثم أعطتني ورقة صغيرة عليها رقم هاتف. لم أفهم في البداية، سألتها: 'لماذا الرقم؟'، فقالت لي ببساطة: عليك أن تتصل لتحجز موعدًا للحمام. توقفت مصدومًا، لكن لم يكن لديّ خيار آخر."

أضحك وأنا أكتب، أتذكر شعوري يومها، ذلك المزيج من الاستغراب والضحك، وكأنني وقعت في مقلب سخيف. فتابعت الكتابة:

".. اتصلت بالرقم الذي أعطتني إياه، وكان هذا أول اتصال لي باللغة الروسية. سمعت صوتًا عميقًا يقول: (زدرازفوتي)، وهي تعني مرحبًا. تلعثمت في البداية، ثم قلت بلهجتي الغريبة: (يا ختشو زاكازات دوش)، أي أريد أن أحجز حمامًا . كان صوته هادئًا، وأعطاني وقتًا

محددًا ومكانًا يبعد عني عشر دقائق سيرًا. .. شعرت أنني أقوم بمهمة سرية، أخذت أغراضي وخرجت، أسير بين الأزقة.. "

توقفت مرة أخرى، شعرت بشيء من الدفء يغمرني، ربما بسبب الكتابة، أو ربما لأنني تذكرت تلك التجربة بتفاصيلها. أكملت الرسالة:" وصلت إلى العنوان، وكان المكان صغيرًا، قديمًا، وكأنه خرج من زمن مختلف. عندما دخلت، كانت هناك امرأة مسنّة تراقبني بحذر. قلت لها الكلمة التي تدربت عليها: (زاكاز دوش). ابتسمت، وأشارت إلى ممر ضيق، ثم دفعت لي بشيء يشبه المفتاح الصغير. ومضيت إلى الحمام الصغير، ووقفت تحت الماء الدافئ. يا له من شعور! لم أكن أعتقد أن الاستحمام يمكن أن يكون تجربة مليئة بالإثارة. خرجت وأنا أشعر بنشوة غريبة، وكأنني انتصرت في معركة صغيرة".

كتبت السطر الأخير:

"أبي وأمي، أتمنى أن تكونا فخورين بي. سأعتاد على هذا المكان، رغم كل شيء، ورغم كل هذه المواقف الغريبة".

وضعت القلم جانبًا، وشعرت بنوع من الراحة، كأن الكلمات كانت تطهيرًا لكل ما اختلج في داخلي من مشاعر لم أكن أجرؤ على البوح

بها. ابتسمت وأنا أطوي الورقة بعناية، وضعتها على الطاولة بجوار السرير، ثم استلقيت مجددًا. هذه المرة، لم يكن السرير ضيقًا كما كان يبدو قبل دقائق، ولم تعد الجدران عالية كما كانت. شعرت بشيء من الدفء يسري في أطرافي، ربما لأنني، ولو للحظة، لم أعد وحيدًا....

٦

... وأنا أتجول في ممرات المسكن بصوت شبشبي الجديد الذي لا يملّ من إعلان حضوري، كنت أفكر في يوم شرائي له، في ذلك الصيف الدافئ حين ضاعت خطواتي بين متاجر "النيفسكي بروسبيكت". كان يومًا ممتعًا، الهواء محمل برائحة القهوة والخبز الطازج، وصوت الشوارع ينبض بالحياة كأنها تعزف سيمفونية غير مرئية.

ووسط هذا الزحام، لفت انتباهي بائع متجول بملابس بسيطة، يجلس بجوار المتجر الكبير "جاستين دفور"، يغني بصوت رقيق أشبه بهمسة عذبة تلتف حول السامع. كان صوته ينطلق من أعماق قلبه، نابضًا بالعاطفة. لم أفهم كلماته، لكن الطريقة التي كان يغني بها جعلتني أتوقف وأصغي, كأنني قد وقعت تحت تأثير تعويذة موسيقية، صوت عذب يحيط بي وكأنه يرسم لوحة من مشاعر دافئة.

وقفت هناك كالمسحور، أراقب البائع وأصغي لصوته الذي كان يحملني إلى عالم آخر، عالم قديم متخفٍّ بين ألوان "النيفسكي بروسبيكت" وممراته. انتهى من أغنيته، ولمحت في عينيه بريق سعادة خفية، ثم ابتسم لي ونظر إلى بضاعته المتواضعة المصفوفة على الأرض. بين أشياءه، كان هناك شبشب بسيط، بدائي الطراز، ولكنه بدا كأنه يحمل قصة قديمة، كأنه كان ينتمي إلى زمن غير زمننا.

- "أتريد هذا الشبشب؟ بثلاث روبلات فقط"، قال وهو يشير إليه بابتسامة خفيفة.

ترددت قليلاً، فشبشبه لا يبدو أفضل مما هو عندي، لكنه ابتسم لي بابتسامة عريضة دافئة. أحسست وكأنني لا أشتري مجرد شبشب، بل أشتري قطعة من ذكرياته، من ابتسامته، من لحظات العاطفة التي أطلقها في أغنيته، فأعطيته النقود بابتسامة وأخذت الشبشب. حين لبست هذا الشبشب لأول مرة في المسكن، عادني ذلك الشعور الدافئ، شعور تلك اللحظة حين كان البائع يغني وأنا أصغي, أحسست وكأن هذا الصوت الذي يصدر من خطواتي ليس مجرد ضجيج، بل موسيقى ترافقني من ذلك اليوم، موسيقى حزينة أحيانًا، ومرحة

أحيانًا أخرى، تصنع إيقاعًا خاصًا لكل خطوة، وكأن الشبشب أصبح رفيقًا يحمل معه أثرًا من تلك الأغنية وصوت ذلك البائع الدافئ.

8

... كان الجو باردًا بشكل لاذع، والمطر الخفيف الذي بدأ يتساقط بغزارة قد غطى ملامح المدينة بلمعان كريستالي ناعم، فتحولت سانت بطرس بورغ إلى لوحة فنية ساحرة كأنها خرجت لتوها من ريشة فنان عاشق للألوان المتقلبة. كانت أضواء شارع "النيفسكي بروسبيكت" الطويلة، المعلقة على أعمدة الإنارة العتيقة، تتلألأ على الأرصفة المبللة، فتنعكس برشاقة على بقع الماء الصغيرة، لترسم أمامي لوحات تتراقص فيها الأضواء مع الظلال، وكأن الشارع بأكمله قد تحول إلى مرآة ضخمة تعكس عالمًا آخر.

وكان الجميع يحمل شمسيات تقيهم المطر، إلا أنا، فتبللت من رأسي حتى قدمي. وكان صوت خطواتي يتداخل مع أصوات قطرات المطر التي تتساقط على الرصيف، تمتزج ببعضها البعض لتكوّن لحنًا متناغمًا مع إيقاع المدينة.

كنت أُسرع في خطواتي نحو المترو، واضعًا يديّ في جيوب الجاكيت الذي اشتريته حديثًا. كنت أمشي بانكماشٍ، محاولةً مني للاحتماء من لسعات الرياح الباردة التي كانت تندس بين طيات ملابسي، تتسلل إلى جسدي كما لو كانت تطرق أبواب عظامي.

وصلتُ أخيرًا إلى البوابة الرئيسية للمترو، شعرتُ بشيء من الارتياح وأنا أدخل إلى المكان المغطى الدافيء. أوقفت نفسي لوهلة عند المدخل، وبدأت أنفض المطر عن جاكيتي، محاولًا استعادة بعض الدفء الذي بدا وكأنه قد تركني في الخارج. رفعت نظري لوهلة لأراقب المارة، وجوههم تكسوها ملامح التعب واللامبالاة، عيونهم تنظر للأمام، لا تلتفت يمينًا أو يسارًا، يسرعون نحو وجهاتهم كما لو أن كل واحد منهم يحمل همًا أكبر مما يستطيع حمله.

تحركتُ بسرعة نحو بوابة المترو، ولكن صوتًا حزينًا، كأنه قادم من زمن بعيد، شدّني وأوقف خطواتي. كان الصوت ينساب في الهواء الرطب، كهمسٍ يحمل مشاعر الدفء والحنين وسط برودة المطر. رفعت رأسي لأرى شيخًا مسنًا يقف بجوار المدخل الرئيسي، يعزف على كمنجة قديمة بلون أصفر باهت. كانت وقفته منتصبة رغم

انحناءات السنين التي كست جسده، ويداه ترتجفان فوق الأوتار بحذر شديد، كمن يعزف لذكرى غالية يخشى أن ينساها.

كانت الكمنجة جزءًا منه، تُخرج نغمات عذبة تحمل في طياتها ألمًا دفينًا لا يوصف. بدا وكأنه يروي قصصًا مرّت عليه، تجسدها أصابعٌ اعتادت الحنين أكثر من الألحان. كانت تلك الألحان تتسلل بين ضجيج الحياة، تنساب إلى الأرواح، لتمسح عليها برفق وتجعلنا نرى المدينة بعيونٍ جديدة، مليئة بالشجن والجمال.

الناس من حوله كانوا يمرون مسرعين، لا أحد يكترث له. وقفتُ هناك، أنظر إلى قبّعته الموضوعة على الأرض. لم يكن فيها حتى روبل واحد. شعرت بالشفقة تجاهه، لا، ليس الشفقة... شعرت أنني مدين له بشيء، بشيء لا أستطيع وصفه.

أخرجت روبلًا من جيبي، ثم وضعته برفق في القبعة. نظر إليّ بعينيه الغائرتين، ثم هزّ رأسه ببطء، كأنه يشكرني بصمت، ثم عاد لعزفه دون أن يقول كلمة واحدة.

أكملت طريقي إلى داخل المترو، مشاعري مختلطة بين الفرح والحزن، كأنني حملت همًا لا أعرفه. ترددت أنغام الكمنجة في ذاكرتي، ورافقتني إلى أسفل، إلى أعماق محطة "نيفيسكي

بروسبيكت"، بينما صوت المذياع يعلن عن محطات الميترو، كانت الأسماء تتردد بصوت آلي ثابت، وكأنها إيقاع آخر ينسجم مع أصوات العجلات المعدنية والهمسات الخافتة للركاب. كانت أضواء المترو الخافتة تلمع على الزجاج المحيط بي، تعكس وجهي كأنه غريب عني، وأحسست وكأنني على متن قارب يبحر في عمق المدينة.

9

...كان شهر يناير ينشر برده القارس على المدينة كعباءةٍ جليدية، حيث كانت درجات الحرارة تنحدر إلى ما دون الثمانية عشر تحت الصفر. لم يكن الهواء يلفح الوجوه فحسب، بل كان ينغرس في العظام، يلسع كل شبر من الجسد حتى تكاد تشعر أن الهواء نفسه قد تجمد. كان الثلج يغطي كل شيء، يكسو الأرصفة والمباني بطبقة بيضاء ناعمة، لكنها قاسية، تعكس بريقًا رماديًا كئيبًا تحت سماء رمادية ملبدة بالغيوم. لم يكن في المدينة سوى لونين, بياض الثلج ورمادية السماء. الناس كانوا يمشون على مهل، يكافحون للتغلب على الرياح المتجمدة التي تدفعهم من كل جانب. وجوههم مختبئة خلف الأوشحة الصوفية الثقيلة، وعندما يتحدثون، تتصاعد غمامة من البخار من أفواههم، تتبدد سريعًا في الهواء كأنها تذوب في قسوة البرد. حتى شواربهم لم تسلم، كانت مغطاة بطبقة من الثلج، كأنّ الزمن تجمد على وجوههم.

كنت أقف هناك، في محطة الجامعة، جامعة سانت بطرس بورغ الحكومية التي تقع في جزيرة "فاسيليفسكي"، تلك الجوهرة الخفية في قلب سانت بطرس بورغ، حيث تتلاقى الطبيعة والجمال في عناق أبدي. تقف الجزيرة كمرآة عاكسة لروح المدينة، فهي ليست مجرد بقعة جغرافية، بل تاريخ نابض بالحياة، كتبت شواطئها فصولًا من قصص الحنين والمجد. على شواطئها، يحاكي الماء حفيف الأشجار التي تصطف على ضفاف نهر نيفا، وكأنها تهمس بأسرار الماضي لكل من يعبرها. هنا، تتنفس الأرض عبق التاريخ، وحجارة الأرصفة تحمل أصداء خطوات الأقدام التي مرّت منذ مئات السنين. في تلك الزوايا الملتوية، تشعر بأن الزمن قد توقف للحظات، ليفسح المجال للحظات من التأمل والسكينة . كنت في تلك اللحظة محاطًا بكمية هائلة من الصقيع. الرياح الخفيفة تلفني بلسعاتها من كل جانب. شعرت كأن البرد يطوّقني، يغزو جسدي، يتسلل إلى كل جزء، يحوّل أطرافي إلى كتلٍ صلبة من الجليد. بدأت أسأل نفسي: كيف يمكن للناس أن يعيشوا في مثل هذا الطقس؟ كيف يستطيعون تحمُّل هذا الشتاء الطويل القاسي، الذي يبدو وكأنه يُخمد كل شعور بالدفء والحياة؟ كان الجو قاتمًا، رماديًا، اكتئابيًا. لم يكن هناك شيء يُشعرك

بالحياة. بينما كنت غارقًا في أفكاري، وتكاد أطرافي تتجمد، ظهر الباص أخيرًا كطيف منقذ من خلف الستار الأبيض الذي لفّ المدينة. انطلقت نحوه كالسهم، كمن يبحث عن ذرة من الدفء في هذا البرد الجليدي. شعرتُ بجسدي يتدفق بدفعة من الحركة، وكأنّ البرد ذاته دفعني إلى الداخل. وعندما اندفعتُ إلى داخل الباص، أصدرتُ صوتًا غريبًا، كأنه صوت ارتياح ممزوج بالألم، صوت نابع من أعماق الروح، كأنّ الجليد الذي كسا حنجرتي قد بدأ بالذوبان.

نظرت إليّ عينا راكب روسي، وابتسم ابتسامة خفيفة تحمل شيئًا من الفضول المكتوم. قال بصوتٍ هادئ:

- "إنه بردٌ قارس، أليس كذلك؟"

تساؤله كان كمن يحاول استكشاف عالماً خفيًا خلف نظرتي. عيناه لم تفارقاني وكأنّهما تحاولان اختراق طبقات الذاكرة. ثم أضاف، بنبرة أكثر تحدٍّ:

- "أنت من ليبيا، صحيح؟"

ازدادت دهشتي، ليبيا؟ لماذا؟ قبل أن أتمكن من الرد، أوضح وهو يُمعن النظر فيّ:

- "لقد كنت في الصحراء الكبرى من قبل... الحرارة هناك لا تُطاق".

ابتسمت برفق، لكن بداخلي كان هناك عاصفة من المشاعر. في داخلي كان الصوت يصرخ: آه، يا ليتني كنت هناك الآن! يا ليتني في تلك الصحراء الكبرى، حيث الدفء يلامس الروح، وحيث الشمس تمدني بحياة جديدة مع كل شعاع.

10

... أذكر ذات مرة عندما قررت زيارة صديقي الذي يسكن في "جورجوفسكايا"، كان عليّ أن أركب المترو. تلك الرحلة لم تكن مجرد وسيلة للوصول، بل كانت مغامرة إلى أعماق المدينة، حيث الحياة تتحرك بنظام وتفاصيل دقيقة. هبطت عبر السلم الكهربائي الذي يبدو كأنه يهبط بك إلى قلب الأرض، وكم كان هذا السلم عجيبًا! كنت أقف على الجهة اليمنى من الدرج الكهربائي، كما ينبغي، بعد أن تعلمت في إحدى المرات السابقة عندما أزاحني أحد الركاب المستعجلين. عرفت حينها أن الجهة اليسرى مخصصة للراكضين، أولئك الذين يستعجلون الزمن.

وكلما اقتربت من عمق المحطة، كنت أحدق في كل شيء. الأصوات تتردد في المكان، إعلانات ودعايات يتردد صداها في أرجاء المحطة. شعرت بغرابة موقفي, كنت الوحيد الذي لا يمسك بكتاب أو مجلة. الكل حولي يقرأ, الكبير والصغير، الأنيق والمتواضع. شعرت بخجل

عميق، وكأنني خارج عن طقوسهم اليومية. تمنيت لو كان معي شيء لأقرأه، حتى أبدو جزءًا من هذه المنظومة الغريبة. لكنني كنت أقف هناك، مكتفيًا بالتحديق.

عندما وصل السلم الكهربائي إلى نهايته، وأصبحت قريبًا من المترو، اكتشفت شيئًا آخر, هناك نظامٌ دقيق للدخول إلى المترو. يجب أن تقف على جانبي الباب، لا في المنتصف، لتتيح المجال للركاب بالخروج أولاً. وعندما يتوقف المترو، تسمع صوتًا مألوفًا يتردد في المحطة: "استروجنا دفيري اتكريفايتسا" (انتبه، الأبواب تفتح). كان لهذا الصوت وقع غريب في أذني، وكأن المحطة كلها تتنفس مع كل باب يُفتح ويُغلق. وبعد انتهاء النزول، تبدأ الحركة المتناسقة للدخول. عندما غُلقت الأبواب، عاد الصوت الجميل يتردد: "استروجنا دفيري زاكريفايتسا" (انتبه، الأبواب تُغلق). وكأن الصدى يحمل معه حكايات المدينة، تلك الحكايات التي لم تُحكَ إلا عبر الأبواب المتحركة للمترو. لا زلت أسمع هذا الصوت في ذاكرتي، وكأنني أعيش تلك اللحظة من جديد، تعيدني كل مرة إلى صدى المدينة وحركتها المتواصلة.

عندما كنت أدخل المترو، إن حالفني الحظ ووجدت مقعدًا، كانت الجلوس راحة ثمينة وسط صخب الحياة المتحركة. ولكن إن لم أجد، كنت أتشبث بالحديد فوق المقاعد، خوفًا من السقوط مع سرعة المترو. وكان هناك قانونٌ معروف, إذا صعدت عجوز أو امرأة حامل، عليك أن تنهض فورًا لتتيح لها الجلوس. تلك القيم الأخلاقية كانت مغروسة في الجميع.

ووسط كل هذا، ما زال الجميع يقرأون، وأنا فقط أراقب. شعرت حينها أنني يجب أن أحمل معي كتابًا صغيرًا في المرة القادمة، لا لشيء سوى لأبدو جزءًا من هذا النظام الغريب، هذا العالم الذي يتدفق بالكلمات والمعاني.

11

... بينما كنت أتمشى في شارع "بليخانافا تري"، كانت عيناي تتنقلان بين مباني المدينة المزيّنة بمختلف الألوان، حتى لفت انتباهي مبنى يلوح في الأفق بقبة برونزية شامخة تعانق السماء. كان كيان هذا المبنى يفرض حضوره، وكأن الزمن توقف أمامه إجلالاً. القبة كانت لامعة، تعكس أشعة الشمس بكل جلال، بينما الأعمدة الضخمة التي تحيط بالمبنى بدت كأنها أذرع حجرية ممتدة لتحضنك، كأنها تقول لك "أنت في قلب التاريخ الآن."

الأعمدة! ما أعظم تلك الأعمدة! لم أستطع تحديد ما إذا كانت مصنوعة من الرخام الفاخر أو من حجر صلب تشبّع بحكمة الزمن. الجمال كان في تفاصيلها الرائعة وتناسقها الذي يبعث الطمأنينة. هذه الأعمدة لم تكن فقط جدرانًا صامتة، بل كانت كأنها تحمل بين طياتها قصص آلاف السنين.

كان المبنى "الكازانسكي سابور"، كنيسة ضخمة تأسر كل من يمر بجانبها. وقفت مذهولًا من قدرة الإنسان على بناء مثل هذه التحفة الفنية. وتذكرت قول الله تعالى" :**وتنحتون من الجبال بيوتًا"**، نعم، إنها قدرة الإنسان الذي وهبه الخالق إبداعًا ليترك أثرًا خالدًا، ليحول الصخور الجامدة إلى معالم تحكي عن حضارة وقوة. وفي تلك اللحظة من التأمل، قطع عليّ تأملاتي شخص ظهر فجأة، يحمل كاميرا ويتحدث بلغة لم أفهمها. كانت كلماته كأنها همسات غير واضحة، وكل ما فهمته هو كلمة **"بليز "** نزلت على أذني كمعجزة؛ أول مرة أسمع أحدًا يتحدث الإنجليزية منذ أيام! التفت لأرى شخصًا صغير الحجم، عيناه ضيقتان كعيني قطة يابانية أو ربما صينية، وكانت بجانبه سيدة تشبهه تمامًا. ابتسم لي وبدأ يشير إلى الكاميرا، وإلى نفسه وزوجته.

لحظة، ماذا يريد؟ بالطبع يريدني أن ألتقط لهما صورة! ابتسمت، هززت رأسي بحماس وكأني مصور محترف تم اختياره بعناية لالتقاط أجمل لحظة في حياتهما. أخذت الكاميرا بحذر شديد، نظرت إليها كما ينظر فلاح إلى طائرة بدون طيار. كانت كاميرا حديثة جدًا، فقلت له بإنجليزيتي الضعيفة, بما معناه أين أضغط.. مع الكثير من

الإشارات بيدي.. وارتفاع حاجبيّ وحركة عينيّ, فهمني الرجل وابتسم وأشار إلى زر في الأعلى، وكانت زوجته ما زالت تحافظ على ابتسامتها التمثيلية.

وقفت, وكانت خلفهما الكنيسة، وكأنها خلفية معدة خصيصًا لهذا الحدث، وابتسم الزوجان في انسجام مثالي. ضغطت على الزر، وبصوت الكاميرا وهي تلتقط الصورة، شعرت أنني صنعت للتو لحظة سحرية!

وبعد أن التقطت لهما الصورة، أعاد لي الرجل الكاميرا بابتسامة أكثر إشراقًا، ثم تبادلا النظرات وكأنهما راضيان عن النتيجة. ابتسمت لهم بفخر، لكن الحقيقة أنني كنت مشغولاً بفكرة" :لماذا لا يفرق الناس بين الصينيين واليابانيين والكوريين؟."

12

... توقف المطر، لكن المدينة لم تهدأ .ظلَّ ضجيج عجلات "الترومواي" يعكر صفو الهواء، كأن صدى الماضي يتردد في كل حركة، وأبواق السيارات ترتطم بخطوات العابرين، الذين يتنقلون كالأشباح بين الشوارع الضيقة والمباني المتعبة، وكأنهم يفرون من شبح غير مرئي. كانت تلك المباني المتهالكة، شاهدةً على تقلبات الزمن وعواصف الطقس، تقف بشموخ مثل قلاع نائمة، صامدة في وجه البرد، وكأنها تُخفي أسرار المدينة خلف جدرانها المتشققة.

كنت في عربة "الترومواي"، التي تحمل في هيكلها الحديدي ثقلاً من الزمن السوفيتي، يصدر صوتًا يخترق العظام مع كل اهتزاز.

شعرت وكأنني أنزلق إلى أعماق التاريخ مع كل نبضة تتحرك فيها العجلات، وكأنني أشارك في رحلة قديمة لا تنتهي. حولي، الركاب كانوا غارقين في الصمت، وجوههم باهتة، وأعينهم غارقة في مسافات بعيدة، محملة بأثقال الماضي، كأن كل واحد منهم يحمل جزءًا من

حكاية المدينة الخفية. عندما دارت عجلات "الترومواي" عبر الأزقة، مررنا بجانب متحف الإرميتاج، ذلك الصرح الأخضر المتلألئ بزينته البيضاء كالجواهر. بدا كأنه قصرٌ من أساطير خيالية، حيث تلتقي الأزمنة وتنساب الحكايات بين جدرانه العالية، وشرفاته التي تعكس ضوء الشمس. كل نافذة، كل شرفة، كل عمود كان يروي قصة من قصص الأزمان الغابرة. وسط ضجيج المدينة الصاخب، وبين صرخات العجلات وهمسات المارة المتسارعة، لفت انتباهي شاب واقف عند ناصية الشارع، يعزف بآلة قديمة، كما لو كانت قطعة من روحه. أنامله تتراقص على الأوتار، تستجدي أملاً في قطعة نقدية تلمع في عينيه كما يلمع الحلم في قلب الليل. أنغامه الهامسة تتسلل بين صرير المحطة كرسالة خفية، لا يلتقطها سوى من اعتاد على أنين الزمن. وعلى محطة الباص المتآكلة، وقف آخر يعزف على كمنجته البالية نغمات غارقة في الحزن، تتسلل بين ضجيج الحياة كدموع خجولة تهرب بخفاء بين أقدام المارة. كانت تلك الألحان تهمس كليل طويل، يمتد بلا نهاية، لغة لا يفك شيفرتها إلا من ذاق مرارة الأيام واعتاد الانتظار في محطات العمر الباردة.

وعند حافة النهر، حيث اختلط الضباب بظلال الأشجار المتساقطة، كان رجل عجوز، يعتمر قبعة من الفراء، ويمسك بين شفتيه غليونًا ينبعث منه دخان كثيف. عيناه كانتا تغرقان في لوحته الزيتية، يحاول فيها أن يجسد مشهد الجسر المغطى بالضباب وأوراق الشجر التي تكسو ضفاف النهر كوشاح الخريف الأخير. كان يبدو وكأنه يحاول أن يثبت لحظة هاربة في الزمن، يحفظ سكينة الجمال في لوحة ترفض أن ترضخ لصخب المدينة ودوامتها التي لا تهدأ. في تلك اللحظة، شعرت أنني لست مجرد مراقب، بل كنت جزءًا من هذا المشهد المعقد، تتشابك فيه تفاصيل المدينة بين ضجيج الترومواي والموسيقى الحزينة ولوحة الطبيعة التي تحمل عبق الزمن الغامض. أصبحت واحدًا من هؤلاء الذين يحكون حكاية المدينة، يذوبون في أسرارها دون أن يشعروا أنهم قد أصبحوا جزءًا منها.

13

... في جامعة سانت بطرسبرغ الحكومية، كلية علم النفس، قاعة 1111، كانت أول محاضرة لي في تلك الأرض الباردة. أذكرها جيدًا كأنها مشهد سينمائي. كنت أنا وزميلي إبراهيم، اثنان عرب وسط 120 طالبًا روسيًا، وكان الجو في القاعة مشحونًا بالرهبة! المحاضر، بروفيسور عجوز، يقف في مقدمة القاعة، يتحدث بسرعة خرافية، ومن أنفه، كأنه يختنق بمفردات علم المنطق، وأنا أحاول أن أفهم شيئًا، أي شيء، لكن بلا فائدة.

جلسنا في الصف الأمامي، قرار أحمق منّي بالطبع، فكرتُ أن الجلوس هناك سيمنحني الفهم، لكن الواقع كان أنني أراقب كل تفصيلة في وجه المحاضر العجوز، وكيف كان يلهث وهو يتحدث بسرعة صاروخية. بعد مرور 15 دقيقة، بدأت أشعر وكأني في سباق مع الكلمات التي لم أستطع حتى اللحاق بها، وبقيت أنظر إلى إبراهيم

بجانبي، عله هو يفهم! لكنني وجدته يحدق في فراغ القاعة، وكأنه يحاول التواصل مع الأرواح الهائمة ليفهم المنطق.

الساعة كانت تمر ببطء، بينما الطلاب حولنا يكتبون بلا توقف، وكأنهم آلة نسخ بشرية. وبينما كنت أفكر في كيف سأعود إلى البيت وأعتزل الحياة الأكاديمية للأبد، لفت انتباهي شاب روسي يجلس بجواري، كان يكتب المحاضرة بخط جميل وكأنه يخط دعوة لحفل زفاف مهم. قلت في نفسي: "أخيرًا، الأمل موجود! هذا الشاب هو المنقذ!" فكرت في تصوير الدفتر، قلت لنفسي: "على الأقل سأخرج بشيء غير وجع الرأس"!

انتهت المحاضرة أخيرًا، وكأنها فصل من فصول العذاب. جمعت شجاعتي وتوجهت نحو الشاب الذي سمعت زملاءه ينادونه "سيرغي"، بابتسامة عريضة ووجه يشع أملاً. قلت له بكل حماس: "مرحبًا سيرغي، ممكن تعطيني دفترك لأسجل المحاضرة؟". توقعت أن يجيبني بابتسامة ويتحول اليوم إلى يومٍ جميل. لكن سيرغي، دون أي تردد، وبنظرة باردة كأنني طلبت منه تسليم أسرار الدولة، قال ببساطة: "لا".

أقسم أنني في تلك اللحظة شعرت وكأن أحدهم أوقف الزمن. وقفت هناك، فمي مفتوح، وابتسامتي لا تزال معلقة على وجهي كإعلان قديم منسي على جدار مهجور. كنت في حالة صدمة، تركني سيرغي وذهب، وأنا أقف هناك، أفكر: "هل كان ذلك حقيقيًا؟ أم أنني تعرضت لمقلب في برنامج الكاميرا الخفية الروسي؟"

عدت إلى مقعدي بجوار إبراهيم الذي كان ينتظرني ويقول: "ها، صورت الدفتر؟" نظرت إليه وقلت: لا.

14

....كانت تلك الليلة شتاءً باردًا من نوفمبر 1994، في سانت بطرسبرغ، حيث مسكن الطلبة "بليخانوفا تري"، كنت جالسًا في غرفتي الصغيرة ذات الأثاث الشاحب، والمصباح الأصفر يضيء برتابةٍ كمن يُنذر بالرحيل القريب. كنت أحاول فكّ ألغاز اللغة الروسية بين دفتي كتاب، أبحث عن معنى في أشكال الحروف الغريبة، تلك التي تبدو كأقواس وتعرجات تثير الفضول والارتباك.

رفعت عينيّ قليلًا لأستريح، وعندها لمحته عبر النافذة ذات الطبقتين, شيئًا أبيض يتهادى بهدوء في الهواء. أخذت أنظر مليًّا، وتساءلت بيني وبين نفسي: "هل يعقل أن هذا هو الثلج الذي طالما سمعت عنه؟". لم أستطع منع الدهشة من أن تملأ كياني، كانت هذه أول مرة أرى فيها الثلج يسقط حقًّا، كما لو أن السماء نفسها تمطر سحرًا.

غمرني شعور بالطفولة، وتملكني ذلك الفرح الطفولي الذي يشعر به الإنسان عندما يرى العالم بكل سحره لأول مرة. دون أن أدرك ما أفعله، وجدت نفسي أقترب من النافذة حتى التصقت جبهتي بالزجاج البارد، أراقب تلك الحبيبات البيضاء تتساقط بكثافة. قلبي تسارع وكأنني طفل يرى معجزة.

نهضت فجأة، ارتديت حذائي الخفيف الذي بالكاد كان يغطي قدميّ، وتجاهلت فكرة ارتداء المعطف أو القبعة، وكأنني في سباق مع الزمن. هرعت نحو الباب العتيق، ودفعتُه بقوة حتى صرخ بمفاصله بصوتٍ موحش، ومع ذلك، لم أبالِ, كان البرد يغمر المكان. خرجت، ورفعت وجهي نحو السماء، مادًّا يديّ كمن يستقبل الهدايا. الثلج كان يلامس وجهي، يتساقط على جفوني، وأغمض عينيَّ بفرحٍ لم أشعر به من قبل.

بدأت أدور حول نفسي، كراقصٍ على مسرحٍ من بياض، أمدّ يدي لألتقط قطع الثلج العالقة في الهواء، وكلما امتلأت كفاي بأصابع حمراء من البرد، كنت أبتسم وأضحك كأنني اكتشفت حلوى جديدة، رفعت حبات الثلج إلى فمي وتذوقت طعمها البارد. كان مشهدًا أقرب إلى الحلم.

أضحك وأدور، غير مكترث بشيء اسمه "برد". وبينما كانت القشعريرة تسري في جسدي، لم أشعر إلا بفرحة طفولية غامرة، ضحكت ملء قلبي كمن اكتشف أسرار الكون دفعةً واحدة. تذكرت للحظةٍ أنني خرجت بلباس النوم وحذاء المنزل، غير أن البرد لم يكن قادرًا على سرقة هذه الابتسامة من وجهي، تلك التي ظلّت معي وأنا أعود إلى غرفتي، وقد غمرتني سعادة لم أجد لها مثيلًا.

15

... كان ذلك اليوم بمثابة لوحة رمادية رسمتها الغيوم، معلقة في سماء غارقة بالثلوج، وكأنها وشاح أبيض يغمر وجه الأرض في صمت ساحر. كان الشتاء يعزف سيمفونيته الباردة، يلفني بغطاء من الرهبة يثقل أنفاسي، بينما قلبي يخفق بإيقاع متسارع، كأنه على وشك الهرب من بين أضلعي. كان هذا أول امتحان لي في الجامعة، اختبارًا في تشريح الجهاز العصبي المركزي .امتحان شفهي, مجرد تلك الكلمات كانت كفيلة بإشعال نار الخوف في صدري، لهيب لا يعرفه إلا من يواجه رهبة السؤال في عيون الممتحنين، بينما ينتظر الكلمات أن تسعفه بكل معرفة جمعها في تلك اللحظة الصامتة الثقيلة.

كانت الحكايات تدور بين الطلاب كأنها أساطير عن امتحان لا يُنجى منه، عن البروفيسور (شوستاك) الذي كان يُلقي بظلاله الطويلة فوق الجميع.

كان رجلًا طويل القامة، عريض المنكبين، يملأ حضوره المكان بهيبة لا تخفى على أحد. شعره أبيض ناصع، ناعم ومسترسل إلى الخلف بعناية، كأنه رمزٌ حي للعصور الماضية التي تركت بصمتها عليه, شعر يوحي بالوقار ويشعرك بعبق الزمن. وجهه كان أحمر اللون، لكنه مشرق ببرودة حادة، أشبه بتمثال نُحت من صقيع الشمال, قسماته حادة وثابتة، كأنما صُقلت لتبث رهبة بلا حدود. ارتدى بدلة سوداء شديدة الأناقة، تموج بثقلها كأنها جزء منه، وكرافاتة داكنة تلف عنقه بإحكام، توحي بجدية لا تقبل التهاون. لم يكن في مظهره شيء يبعث على الألفة, كل تفصيل، من حذائه اللامع إلى الكتفين المنتصبين، كان يوحي بالقشعريرة، وكأن صمته وحده قادر على تثبيت الأنظار وإخماد الهمسات.

صعدت إلى الطابق الثاني حيث كانت الغرفة، غرفة قديمة بإنارة خافتة، كأنها قطعة من حقبة الاتحاد السوفييتي التي بقيت عالقة في الزمن. الخشب القديم كان يئن تحت أقدامنا، والطاولات والكراسي تنظر إلينا كأنها شاهدة على عصورٍ مضت. لا أزال أذكر تلك اللحظة، اللحظة التي وقفت فيها أمام الباب، والخوف يسري في دمي كتيار كهربائي لا يتوقف.

كنت أريد أن أكون آخر من يدخل، أن أهرب من المواجهة لأطول فترة ممكنة، لكن حين رفض الروس الدخول، وجدت نفسي دون تفكير أقفز إلى الأمام كمن يقفز في بحرٍ هائج. دخلت الغرفة، وإذا بعينيَّ تتلاقى مع نظرة البروفيسور (شوستاك). لم يبتسم، لم يعبّر عن أي شعور. فقط قال لي بصوت جامد: "تعال، خذ بطاقة واجلس."

اخترت البطاقة وجلست. كانت الأسئلة تبدو كأنها مكتوبة بلغة غريبة، واحد منها كان سهلًا، والآخر معقدًا، ذلك السؤال الذي سهرت ليال طويلة أحاول فهمه دون جدوى. ومع ذلك، تقدمت للإجابة، وقلبي يرتجف كطائر صغير وقع في شبكة صياد، يحاول الإفلات بلا جدوى. ترددت قليلًا، ثم قلت له بصوتٍ خافت يشوبه الارتباك: "هل لي أن أقرأ من الورقة؟" فأومأ برأسه موافقًا، دون أن يكلف نفسه عناء النظر إلي، بل كانت عيناه متسمرتين في الفراغ، كأنه يستجلي شيئًا بعيدًا، لا أعلم ما هو.

بدأت أقرأ، وكلماتي تخرج متعثرة أحيانًا، محاولًا أن ألتقط أنفاسي، بينما البروفيسور لا يزال غارقًا في أفكاره، وكأن وجودي لا يعني له شيئًا. وعندما انتهيت، ألقيت نظرة حذرة إليه، أنتظر حكمه بشيء

من الترقب الذي يلامس حدود الرهبة. رفع نظره أخيرًا، فالتقت أعيننا، وقال بثقة وهدوء بالغين، كمن يعطي أمرًا وليس تقييمًا:

"أنت الآن في السنة الأولى، واللغة ليست سهلة، هذا مفهوم. لكنك حاولت، وهذا هو المهم في نظري. سأمنحك النجاح، لأنني أعي صعوبة الأمر على الطلاب الأجانب".

ثم، بعد لحظة صمت ، أضاف سؤالًا غير متوقع، وعيناه تلمعان بنظرة تحدٍّ خفي: "لكن لدي سؤال إضافي: هل يحدث هذا، الذي تحدثت عنه، عند الحيوانات أيضًا، أم أنه يقتصر على الإنسان فقط؟"

شعرت بأنني وقعت في الفخ مرة أخرى. تملكني الارتباك، لم أكن واثقًا من إجابتي، لكنني بذلت جهدي للإجابة بما استطعت من معلومات. ابتسم البروفيسور ابتسامة خفيفة، ثم قال لي:

- "سأقدم لك نصيحة مهمة. اقرأ بلغتك الأم، بالعربية. كل كتاب تقرأه بالروسية، حاول أن تقرأه بالعربية أيضًا. هذا سيساعدك على فهم المعنى بعمق أكبر".

ثم أضاف، وكأنه ينقل إليّ خبرة عمر بأكمله:

- "لقد تعاملت مع طلاب أجانب كثر، وأعلم تمامًا ما يحتاجون إليه ليفهموا جيدًا. لأن الفهم الحقيقي يرتبط بجذور اللغة التي نشأنا بها".

كانت كلماته تلك تحمل صدقًا ومعرفة نابعة من خبرة حقيقية, شعرت وكأنني تلقيت مفتاحًا لم أكن أعلم بوجوده.

خرجت من الغرفة كأنني أتنفس للمرة الأولى. كان الجو بالخارج لا يزال باردًا، لكنني شعرت بدفءٍ غير مألوف يسري في روحي، كأنما نصيحته أشعلت في داخلي شعلة خافتة أضاءت عتمة نفسي. كانت كلماته تفتح لي نافذةً جديدةً نحو المعرفة. ومنذ ذلك اليوم، اتخذت كلماته دليلًا لي. بدأت أقتني الكتب بالعربية، وأقرأها بشغف باحثًا عن الفهم العميق الذي لطالما تمنيته. أدركت أن المعرفة ليست مجرد كلماتٍ تسكب على صفحات الكتب، بل هي رحلة نتقدم فيها خطوةً بخطوة، نصارع فيها مخاوفنا ونتجاوز رهبتنا، حتى تصل بنا إلى يقينٍ صادق.

تم بحمد الله وفضله

الكاتب:

الدكتور بديع الزمان عبد العزيز محمد القشاعلة هو كاتب وشاعر فلسطيني تميز بإبداعاته الأدبية التي تمزج بين عمق الشعور وبلاغة اللغة. يشتهر بأسلوبه الوصفي الرقيق والمتأمل، والذي يظهر بوضوح في دواوينه مثل "عنفوان الهَمس"، "عبر نافذة الوطن"، "ذاكرة المطر"، "صخب الشجون"، "أنين الصمت"، و"صخب كلمات". بالإضافة إلى الشعر، له إسهامات في أدب الأطفال عبر قصص تحكي عن الحياة والوطن والقيم، بأسلوب يتناسب مع عالم الطفل وخياله. تنبض كتاباته بعبق الانتماء إلى الوطن، وتستحضر في القارئ مشاعر الحنين والعمق الإنساني، ويظهر في أعماله اهتمامٌ بتفاصيل الحياة اليومية التي يوظفها بأسلوب سردي شاعري يجمع بين البساطة والعُمق.

من خلال أعماله، يعبر د. بديع القشاعلة عن القضايا الوجودية والوطنية والشخصية بتجسيد واقعي يتخلله الحس الأدبي الرفيع.